كلمة التحرير

سؤال يكاد يكون حاضراً في كلِّ مناسبة وعلى لسان كلِّ مسلم متابع باهتمام لما يجري من أحداث وتطورات في الواقع الإسلامي و العالمي: كيف نواجه العولمة؟ وأحياناً يُثار بصفة أقلَّ حدَّة: كيف نتعامل معها؟

ويبدو الأمر وكأنَّ المسلمين هم وحدهم المعنيُّون بالإجابة عن هذا السؤال، واستقرَّ في ذهن البعض أنَّ القُوَّة المتحكمة في توجيه نظام العولمة متحكِّمةٌ أيضاً في النتائج التي يمكن أنْ تترتَّب عنها، وأنَّ القوى الأخرى قد استسلمت بشكل نهائي، ولم يبق إلاَّ ترتيب أمر الاتِّساق أو الانسياق في هذا التَّيار العامّ الجارف. ولكن هل صحيح أنَّ العولمة تيارٌ يمكن تحديد نقاط انطلاقه ونقاط وصوله؟

الظاهر أنَّ الأمر بحاجة إلى شيء من التَّعديل، ونحسب أنَّ هذا التَّعديل ضروري توضيحاً للصورة وترشيداً للموقف. لنتفق أولاً على أنَّ العولمة حركة قهريَّة بالضرورة، وتسعى إلى قولبة العالم ولكنَّها حركة دائرية التَّوجه، بمعنى أنَّ الوسائل التي حُشدت لخدمة هذا الغرض وتحديداً الوسائل الإعلاميَّة يمكن أن تُستخدَم ضدَّ الأهداف التي من أجلها

وُضعت. الأمر الثّاني أنَّ العولمة - على ما في وسائلها من قوة وتنوّع - لا تحمل رسالة مثيرةً وجذّابة، ومن أين ستكون لها قوّة الجذب هذه وهي عارية من كلِّ معنى، بل اللامعنى هو جوهرها، مثلها مثل غابة كثيفة الأشجار مهيبة المنظر، ولكنَّها خالية من الثمار... لقد كانت الحضارة الغربيَّة في مرحلة العالميَّة أقلَّ عُدَّةً واقلّ عتاداً، ولكنَّها استطاعت أنْ تُقدِّم نفسها بصفتها صاحبة رسالة، قدَّمت نفسها على أساس أنَّها حضارة العقل،وكان لذلك الشعار صولات وجولات في عالمنا الإسلاميّ، لأنَّ العقل حينئذ كان عندنا مُكبَّلاً، أو على الأقلِّ كان مستقيلاً عديم الفعل. وقدَّمت نفسها على أساس أنَّها حضارة العدل والمساواة، ولا نستطيع أن ندَّعي بأيّ حال من الأحوال أنَّ هاتين القيمتين كانتا حينها أساساً لحياتنا الاجتماعيّة و السياسيّة، وقدَّمت نفسها على أساس أنَّها حضارة الحرية والديمقراطية، ولقد كان الاستبداد متمكِّناً في مجتمعاتنا و لا يزال. كما قدَّمت نفسها على أساس أنَّها حضارة التفوُّق التكنولوجي والوسائل التقنية المتطوِّرة، ولقد كانت وسائلنا بدائية قاصرة.

وبالرغم من أنَّ الحضارة الغربية ما انفكّت حضارة نهب-كان الاستعمار المباشر أبرز أشكاله - فإنَّ ذلك لم يمنع حركات التَّغيير بكلِّ توجُّهاتها من التفريق بين ضرورة تحرير الأرض وضرورة تحرير الإنسان في ضوء تبيئة إسلامية لقيم الحضارة الغربية في مرحلتها العالميَّة من أجل تحرير الإنسان المسلم، وتحرَّرت الأرض أو تكاد ولم يتحرَّر الإنسان. ولكنَّ ذلك موضوع آخر بعيد عن سياق هذه الكلمة.

نريد أن نخلص من هذا كله إلى أنَّ الحضارة الغربية في مرحلة العالمية كانت تمتلك عدداً من عناصر الجذب والإثارة، أمَّا العولمة فإنَّها تُقدِّم نفسها قَدَراً لا مفرَّ منه ولا مناص، يسعى إلى تنميط الوجود الإنساني وقولبته،

ومحاربة كلِّ أشكال الاختلاف والتميّز. ولكن الواقع أكثر تعقيداً من هذه المعادلة البسيطة لأنَّ امتلاك الخبرة في الوسائل أصبح أمراً ممكناً للجميع. ولا شكَّ أنَّ إمكانات امتلاك الوسائل في حدِّ ذاتها أمرٌ متفاوت القدر بين الأمم، ولكنَّ ذلك ليس هو العامل الحاسم أو المميّز، إنَّ الشيء الذي يميِّز بالفعل هو امتلاك الإرادة الحُرَّة والرسالة الهادفة.

النظام العالمي الجديد ليس له رسالة يُقدِّمها للإنسانية، ومحال أن تكون له رسالة لأنَّه ينطلق من فلسفة قوامها اللاَّمعنى وغياب المعايير، فقد تراجع العقل أمام تغول الغريزة، وتضاءلت المصلحة العامة أمام تضخُّم المنفعة الفردية، وطغت القيم المادية على القيم الإنسانية، و باختصار تحول الإنسان إلى مُجرَّد فرد متمحور حول ذاته، السقف الأعلى لطموحاته لا يتجاوز تحقيق رغباته الماديَّة المباشرة. حقّاً إنَّها لمفارقةٌ عجيبة و هي الأولى التي سنقف عندها، تتنوَّع وسائل الاتصال وتتطوَّر تطوُّراً مذهلاً، ولكن في الوقت نفسه ينخفض التواصل الإنساني إلى أدنى مستوياته، فتجد الفرد يملك هاتفاً ثابتاً وهاتفاً جوَّالاً، وناسوخاً إلكترونيا، ويستخدم شبكة الانترنيت، ولكنَّه لا يكاد يعرف شيئاً عمَّا يجري خارج بيته، وليس ذلك أمراً مهمّاً بالنسبة إليه، لا يهمُّه أن يعرف إن كان جاره مريضاً أو معافى، حاضرا أم غائبا، في حين أنَّ في كلِّ قرية من قُرى العالم التي تفتقر إلى أدنى وسائل الاتصال تجد الفرد متابعاً لكلِّ ما يحصل، يعرف من مرض ومن رزقه الله بمولود جديد، ومن فقد عزيزاً، وذلك لأنَّ التواصل عندهم أقوى من وسائل الاتصال، أمَّا في المدينة فقد تحوَّل الناس إلى مجموعات من الأرقام الباهتة، مثلهم كمثل زُوَّار الفنادق، لا يجمع أجسادهم ولا يفرِّقها إلاَّ المصعد الكهربائي، ولا تتجاوز علاقاتهم الاجتماعية كلمات عابرة عن أحوال الطقس وأنواع المأكولات.إنَّ أبرز ما يميز العولمة هذه الحقيقة المخيفة: قوَّة وسائل الاتصال وضعف أسباب التواصل.

المفارقة الثانية - وهي مرتبطة بالأولى - **هي** أنَّ التضخُّم في وسائل المعرفة يقابله زيادة في جهل الإنسان بنفسه و بمحيطه الإنساني والجغرافي وبالعالم، فانتفى التعارف الذي من أجله كان الخلق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] ، وذلك لأنَّ الصورة التي أصبحت الوسيلة الأكثر حضورا والأكثر تأثيراً في المشاهد، صورة مُوَجِّهة سياسياً ومُغَذِّية إيديولوجياً ومن معين واحد، وإذا ما استثنينا بعض المحاولات الإعلامية الإسلامية - وهذا دليل على إمكان اختراق العولمة - فإنَّنا نلاحظ أنّ القنوات الفضائية التلفزيونية تتناقل الصورة نفسها وتكاد تردد التحليلات نفسها.

ما يميّز النظام العالمي أيضا - وهي المفارقة الثالثة - هو ايمان القائمين عليه بالحرية المطلقة لحركة الأشياء و الأموال وتبعا لذلك لقيم الحضارة المنتجة وفي الوقت نفسه حرصهم على تعطيل حركة إنسان الجنوب و منعه من الهجرة إلى الشمال. حبس الإنسان في الجنوب يراد منه حبس المشكلات التي ترتبت عن التوزيع الظالم للثروة الإنسانية ومحاصرة الفقراء مثلما كانت تحاصر البورجوازية ذوي العاهات في أطراف المدينة وتحميلهم وحدهم مسؤولية شقائهم و تعاستهم وحبسه أيضا حبس لثقافته وقيمه و معاييره التي تصبح في نهاية تحليلاتهم السبب الأساسي في تخلف هذه المجتمعات. إنها عملية إفراغ الإنسان في الجنوب و خاصة الإنسان المسلم من مكونات قوة المناعة عنده حتى يصبح عجينا قابلا للتشكل وفق القالب المعد سلفاً وفي ذلك إصرار على أن يظلَّ العالم مقسَّماً إلى قسمين قسم ينتج وقسم يستهلك، و كل من يحاول أن يحدث تغييراً في هذه القسمة أو يخشى منه أن يتجاوز السقف المسموح به فإنَّ

---

[1] الحجرات: ٣١.

كلَّ الوسائل تصبحُ مشروعةً لإعادته إلى مكانه "الطبيعي" و لم تعد المشكلة في القدرة على امتلاك خبرة الإنتاج، ولكن في تسويق ما ينتج، فليس إذا أمام الدول الإسلامية إلا أن تطوِّر التبادل التجاري فيما بينها عوض دعم تبادل الخبرات في اقتناص مواطنيها المعارضين.

من حقِّ القارئ أن يسأل، و سؤاله يفرضه منطق المُقدِّمات السَّابقة: إذا كان هذا حال العولمة فلماذا هذا الخوف منها؟ و لماذا هذا التساؤل المستمر حول كيفية التعامل معها؟

ما ذكرناه حول النظام العالمي لا ينفي عنه أنَّه لم يعد يتوفر على الأسباب التي تجعل الإنسان يَشُدّ الرحال إليه، فالأشياء لا تقارن إلاَّ بأمثالها، هذا الوجه الكالح للعولمة إذا ما قارناه بالصورة التي عليها مجتمعاتنا يبدو جميلا وبالتحديد في القضايا المتعلقة بالحريات العامَّة، خاصَّة وأنَّ الغرب بشكل عام يلعب دورين مزدوجين قلَّما يقع الربط بينهما، يؤيد أنظمة الاستبداد ويمدّها بأسباب البقاء، ويستقبل ضحاياها بحفاوة بالغة، يوفِّر لهم الأمن الاجتماعي، ويؤمن لهم مستقبل حياتهم، يُعطيهم بعضاً من فتات الثروات التي نهبها، فيتحول حتى عند الضحايا أنفسهم إلى راعٍ لحقوق الإنسان، وحامٍ لها.

إن فقدان الأمل في حياة كريمة هو الذي يدفع الإنسان المسلم إلى التفكير في شدِّ الرحال إلى دول الغرب، ولذلك فإنَّ التحصين الإيجابي للمسلم لا يتمثَّل في الاستمرار في منعه من تحقيق أسباب كرامته، والإصرار على ذلك، مرَّة بدعوى الخوف عليه أو الخوف منه، ومرةً بدعوى الدفاع عن الوحدة الوطنية، وإنّما يتمثَّل في اعتزازه بالانتماء إلى ثقافة ومجتمع يوفِّر له الأمن الغذائي والأمن السياسي والأمن الفكري. معنى ذلك أنَّ ما تبقى من عوامل الجذب في الحضارة الغربية يستمدّ قوته من كآبة الحالة التي يعيشها الإنسان

المسلم في مجتمعه. ولو تحقق للإنسان هذا الأمل في الحياة الكريمة لم يعد هناك مجال للخوف عليه من الانبهار المؤدِّي إلى ضياع الهوية.

من حق المسلم أن يخاف من زحف العولمة إذا ظل الإنسان المسلم فريسة للاستبداد السياسي وضحية للظلم الاجتماعي، ومن حقه أن يتساءل عن كيفية مواجهتها، ولن يكون ذلك ممكنا إذا استمرت الأنظمة الحاكمة في سياساتها الأمنية لا هم لها إلا تحقيق أمن أجهزتها بدلا من تحقيق الأمان لمواطنيها ولا شاغل لها إلا تحقيق " التوزيع العادل" للخوف بدلا من تحقيق التكافؤ في الفرص تمكينا لهم من مواجهة التحديات العديدة التي تتعرض لها الأمة. من هنا يبدأ الاستعداد للتعامل الإيجابي و المؤثر مع التغيرات الكبرى التي تجري في العالم ومن هنا أيضاً تستمد العولمة قوتها استثماراً لضعف الواقع الإسلامي و هشاشته. عندما يصبح الإنسان المسلم حراً وكريماً في وطنه يصبح الصراع متكافئاً ويصبح السؤال حول كيفية التعامل مع العولمة سؤال كل القوى المؤثرة.

حرية الإنسان المسلم وكرامته أساس تحرره السياسي و الاقتصادي، ذلك هو المرتكز الذي تحاول مجلة التجديد أن تسهم في رفع قواعده، ونأمل أن يجد القارئ في مادة هذا العدد ما يساعده على أن يتحول من حالة المستقيل والطالب للسلامة إلى حالة الشاهد على عصره شهادة الرشيد المتبصر.

والله من وراء القصد